الشخصية الزئبقية: جذورها وخفاياها

مقدمة:

لم يُستخدم مصطلح الشخصية الزئبقية من قبل كما استخدم في هذه الدراسة التحليلية، وكان يستعاض عنها بالشخصية الانتهازية، المتملقة، المتسلقة، أو المنافقة. لكنه كمصطلح أو مفهوم أشمل كمنظومة بجوانبها السلبية والايجابية، التاريخية والاجتماعية، السياسية والفكرية، المهنية والنسائية. فهي ليست قاصرة على طبقة اجتماعية ولا فئة مهنية معينة. فالشيء الذي ينظمها ويجمعها ليس انتماءها لطبقة أو مهنة أو حزب بل مصالحها الذاتية وأهدافها الخفية، فهي ظاهرة فردية مختصة بالتكوين الأخلاقي للفرد.

وقد تم اشتقاق مصطلح "الشخصية الزئبقية" من لقب بطل السيرة الشعبية "علي الزيبق" فقد كان رمزاً للقدرة الفائقة على المراوغة والمرونة والتأقلم والتكيف واستيعاب المتغيرات، بما يتطلبه ذلك من دهاء ومكر وحيلة وخداع. نظراً لإعجاب الشعب المصري بهذا البطل وشخصيته المراوغة في مواجهة الحاكم. فقد جسّد الخاصية التي تسلح بها الشعب المصري عبر عصور طويلة متتابعة من القهر والطغيان والخوف والاستبداد.

فقد وقعت مصر في ملتقى قارات وامبراطوريات العالم، ووجد الإنسان المصري نفسه في مهب غزوات من الجهات الأربع، ولا بد له من أن يواصل الحياة بشكل ما لحين انقشاع الغمة. فالمواجهة المباشرة مع الحاكم الأجنبي مستحيلة. فكانت الزئبقية نوع من المواجهة غير المباشرة أو مرحلة كمون إيجابي يشحن الطاقات ويترقب التفاعلات، ويتحين الفرص. حتى لا تخوض معركةً تبدو خسارتها حتمية، فتوقعات الشخصية الزئبقية المستقبلية تشاؤمية لأنها تتوقع الشر دائماً. فهي في حالة استنفار خفي ودفاع عن نفسها بطريقة مسبقة، وما تلبثُ أن تنقض على عدوها في الوقت المناسب.

فالشخصية الزئبقية تتجنب الموضوعية بقدر الإمكان حفاظاً على تحقيق الأهداف الذاتية، لا تنتمي إلا لذاتها ولمصلحتها، فتعوض ضعفها ونقصها بخداع الآخرين مفترضةً فيهم الغباء والدونية. هي إذاً ماكرة وخبيثة يشوبها الغباء أحيانا عندما تتصور عجز الآخرين عن تقمص نفس الخواص الزئبقية. هي إذاً متشرنقة بقشرة سميكة لا تسمح للآخرين بمعرفة أهدافها.

الفصل الأول: علي الزيبق بطلاً شعبيا

هو تجسيد للضمير الجمعي للشعب وليس نتيجة إبداع فردي. إنه بلورة لشخصية الجماعة بكل ملامحها الاجتماعية والنفسية والتراثية. فالبطل الشعبي ينتصر في النهاية لأنه يمتلك الطاقات والإمكانات التي قد تصل الى حد الخوارق. إنه ابن "حسن رأس الغول" الذي قُتِلَ بحيلة ماكرة. وولدت زوجته ابنها علي بعد أيام. فورثَ عن أبيه الحيلة والدهاء والشجاعة الفائقة بل الخارقة التي اشتهرت بها امه - فاطمة بنت الشيخ نور الدين قاضي الفيوم- بين فرسان عصرها.

فمنذ السابعة ينجح في التحايل على شيخ الكتاب والهروب من الدروس، جاعلاً من شيخه سخرية. فترسله أمه الى دكان جده في السوق ليتأدب بأدبه فتتضاعف شقاوته مسبباً ليس فقط إغلاق الدكان وإنّما السوق بكامله. ثم ينتقل مع عبد أمه للدراسة في جامع الازهر فيكرر دعاباته الثقيلة على الشيخ وينتقل ليشهد الألعاب والمصارعة والمراهنات والحيل والخدع فيجد نفسه. وهناك أُطلِق عليه لقب "الزيبق".

وبحسب السيرة التي عرضها فاروق خورشيد فقد دارت القصص حول ثأر علي الزيبق عند صلاح الدين الكلبي، الذي قتل أباه. فهنا خرج الزيبق من طور الصبيان والغلمان إلى طور الفتيان ذوي البأس والرجال ذوي السمعة المخيفة في مضمار الفروسية واللصوصية.

فلم يستطيع الكلبي مقاومة الزيبق، الذي تجرأ حتى على سرقة خزنة بيت المال في بيت السلطان، فعجز الكلبي. ونادى سلطان مصر بالأمان لعلي الزيبق لضمه الى رجاله الذين يحفظون الامن. فخضع لاختبارات عدة حتى أثبت جدارته فتولى درك مصر، ثم درك الشام، وبدأت مغامراته مع دليلة المحتالة التي تغلبت عليه أول الأمر، ثم تمكن من التغلب عليها وعزلها وتولى درك بغداد، فوقع بحب ابنتها زينب النصابة فطلبها للزواج، فغالت دليلة في مهر ابنتها، وأرسلته الى المهالك فنجى، وتنتهي القصة بقتله لدليلة وزواجه من زينب وترك درك بغداد لابنه.

فيكون قد جسد مفهوم الثورة على النظام الفاسد، وتسلح بنفس سلاح الخصم من مهارة وخداع ومراوغة وزئبقية. فيعتبر الزيبق هنا منفذا لإحساس الهزيمة عند الفرد المصري الذي تدور أمامه مهازل تولي المماليك السلطان الواحد إثر الآخر. فكانت الزئبقية هنا تعبير عن إحساس المصري بذاته وكيانه عملا بالأمثال (مكره أخاك لا بطل)، (لا يفل الحديد إلا الحديد)، فكان المصري بين خيارين إما الزئبقية او الخنوع.

إذا فليس من العيب تسلح المصري بالزئبقية طالما كانت قادرة على الحفاظ على كيانه وذاته. فكانت بذلك مصر كدجاجة تبيض ذهبا. لكنها مراوغة، فلم تُذبَح. واقتنع المستعمر ببيضها. لكن سلبيات الزئبقية فاقت إيجابياتها. فالشعوب المتحضرة اليوم يجب ألا تراوغ وألا تتحرج من النقد الذاتي. فالمراوغة تُنفِذ الطاقات والقُوى عبثاً، في حين أن الخط المستقيم هو أقصر طريق بين نقطتين.

الفصل الثاني: الزئبقية الإيجابية

الزئبقية ليست كلها شر، ومن خصائصها المرونة الفائقة القادرة على تجنب المشكلات الطاحنة، وتجاوز العقبات، وقد عرف عن شعب مصر أنه يستوعب ولا يذوب، ومن طبيعة الفرد المصري أنه يصعب الإمساك به وتوجيهه الى وجهة يريدها الآخرون، فيرضخ الآخرون له دون وعي منهم، ويتحولون الى جزء حي من نسج الشعب المصري الحضاري، وطبيعة الشعب المصري غير دموية لأنه شعب عاشق للحياة ولاستمرارها بأي شكل من الأشكال, ريثما يتاح له تشكيلها بطريقته.

المقاومة ليست رفضا مطلقا للتغيير، فالمصريين يتغيرون ببطء على أساس الرضا الداخلي. وليس بالفرض من أطراف دخيلة. فمصر بقيت دولة واحدة لم تنشطر ولم تتشرذم. ولم تعرف حروب أهلية او فتن طائفية او صراعات اجتماعية. وفي بحث بناء الانسان المصري يتضح وبأسلوب علمي أكاديمي أن الإيجابيات في طبيعة المصري أكثر وأعمق من السلبيات. فالمصري رغم معاناته بقي سليم الشخصية، نقي الضمير. قادر على النهوض بمسؤولياته. ثم إنه انسان متحضر يعرف المقومات الحضارية. دؤوب على العمل إن أتيح له مناخ نفسي ومادي وإداري.

فالفهلوة كانت وليدة ظروف سياسية واقتصادية معينة، وليست مقومات طبيعية في المصري. بل مجرد عارض طارئ. وقد التصقت ببعض المصريين نتيجة كثرة التعامل مع المحتلين تحت ظروف قاهرة.

ويرفض فؤاد زكريا اتَّهَام - بعض المؤرخين - الانسان المصري بالاتكالية، بتحفظات أبداها تبين أن للمصريين انتفاضات، وأن الاتكالية ليست فطرته بل حصيلة عوامل ظلم اجتماعي. وكون الحكومة أيام الفراعنة كانت الآمرة الناهية فمن الطبيعي الاتكال عليها. ونتيجة عدم اهتمام الحكومة القديمة بالفرد المصري، بحث دينيا في السماء عن عون وسند.

فيما يعاني المصري من ازدواجية التفكير. فليست أقواله تتطابق مع ما يمارسه من أفعال. وهناك صراع بين القديم والحديث، فتجد إلى جوار مراكز البحوث العلمية والمراكز الطبية، تجارا للوصفات البديلة والشعوذة التي تلغي تماما دور العلم، وترى المصري الحاصل على شهادات عليا عالمية ويعمل بمجالات علمية دقيقة. يضع لسيارته تمائم تقيها شر الطريق.

لكن الجانب الإيجابي في كل هذا، قدرة المصري على امتصاص الأفكار الجديدة واضافة ما يصلح منها الى فكرة القديم بتلقائية غريبة. ويخطئ من يصف الشخصية المصرية من خلال تراثها الشعبي بالغفلة والاستكانة والسلبية. فالشعب المصري لم يفقد شعوره العميق بالأصالة والتفوق والتمييز والقدرة على الاستيعاب والتأقلم. ومع سيطرة الحكام والدخلاء على مقدرات مصر. فالمصري يدرك كل ما يدور في الساحة السياسية بعين ناقدة حادة ومرونة زئبقية عجيبة تطلق الأقوال المأثورة والامثال الشعبية كسهام الى قلب الحاكم دون أن يعرف من أطلقها عليه. فكأن الشعب كتلة واحدة صماء لا يمكن اختراقها او الإمساك بتلابيبها مثل "اللي يشرب من مرقة السلطان تنحرق شفته"," الباب اللي يجيك منه ريح سده واستريح" فلم يكن المصري على استعداد أن يدخل معركة وهو متأكد مسبقاً أنه سيخسرها. ليس جبناً إنما حكمة. فلم يواجه الطوفان كبطل الأسطورة الصينية. بل فتح منه قنوات وترع ليروي الحقول والمزارع، كما فعل ابن البطل الذي لم يمشِ على نهج والده.

وقد كانت السخرية هي سلاح المصري في مواجهة التسلط والجبروت كسلاح زئبقي مراوغ يصعب الرد عليه. وكان يعمل بالمَثل" انا واخويا على ابن عمي، وانا وابن عمي على الغريب" وغير ذلك من المقولات التي تبلور النواة الصلبة الكامنة داخل شخصيته عبر العصور والتي مكنته من معايشة الأعاصير والهزات فظل مفاخرا بأصالته وعراقته، ومتجها بشعوره الديني إلى الله أو إلى نبيه أو الأولياء الصالحين، ثقة بأن الله سيجد له مخرجا.

الفصل الثالث: الزئبقية الفكرية

إن زئبقية الإنسان العادي قاصرة على محيطه الشخصي، لكن زئبقية المفكر أو الكاتب تؤثر بكل من يتعامل معه أو يقرأ له، ممكن أن يكتشف بعض القراء زئبقيته فيصرفون النظر عنه. لكن الزئبقية الذكية الخبيثة المراوغة تنطلي على جمهور كبير من القراء. فإن أصيب المفكر بالزئبقية أصبح كالآكلين من الموائد، اللاعبين على الحبال، فتتحول ثقافته إلى سلعة لمن يدفع أكثر، أحطّ شأناً من عاهرة تبيع جسدها حتى لا تموت من الجوع.

إن الفكر الإنساني والحضاري الأصيل يحتوي في صميمه على توجه أخلاقي حاسم، بدونه يتحول المثقف إلى فاوست جديد يبيع روحه للشيطان طمعاً بثواب أو خوفاً من عقاب. فالمفكر الزئبقي يتحول إلى مخلوق طفيلي يعيش على امتصاص خيرات الآخرين بوعيهم وترحيبهم أو دون وعيٍ منهم مشغولون عن ذلك بالضرب على أوتار نرجسيتهم المشدودة. هو سلس بسيط مساير ومجامل مع الملائكة أو الشياطين زاده نقاط الضعف البشري. تقوده مصلحته الشخصية فقط، إنه إذاً

كقارب بلا دفة، ولو وصل إلى القمة فإنه سيهوي ولن يرحمه أحد. بخلاف الثقافة الإنسانية الرفيعة التي هي قدوة فكرية وعملية في المقام الأول.
لكن وبرغم الأمية المنتشرة في مصر إلا أن هناك وعي حضاري وقيمي ترسب في وجدان المصري منذ آلاف السنين ما يمكنه التمييز بين الزيف والأصالة كأسلوب غريزي عفوي تلقائي. فالإقطاع حدد نظاما محددا وعمليا للإنتاج الزراعي وكان تقدميا مقارنة بالرق والعبودية قبله، القبلية احتوت الفرد ومنحته الأمان والقدرة على الانتماء، أما الديكتاتورية سعت إلى تنظيم المجتمع ولو جارت على الكيان الإنساني، لكنها مراحل حملت بعض المزايا للمجتمع ككل وليس للفئة المهيمنة وحدها.
فالقانون الذي يحكم علاقات الزئبقيين ببعضهم هو التغيير الدائم والتلون المستمر. فهو ثابت وكل ما حوله متغيرات. مواقفه تنبع عن اللحظة الراهنة. وتنشط الزئبقية في المجتمعات التي تعاني من الأمية والفقر. وتنتشر زئبقية المثقفين والمفكرين بين مختلف فئات المجتمع مثل فئة الموظفين يلتفون حول كل حكومة ويؤيدون كل وزير ويتملقون كل حاكم لما في سلوكهم ذاك من مكاسب وترقيات، وكذلك المهنيين كالمحامين ودارسي القانون أملاً بالمناصب. والكتاب والشعراء أيضاً. والكارثة هنا دائرة تأثير محترفي الثقافة والفكر أخطر وأعمق وأعم، ووسائلها حديثة ومرنة ولبقة ومراوغة دائماً. ولا فرق إن كان المجتمع متقدم أو متخلف أو في مرحلة التحول. لكن في المجتمع المتقدم فإن المجال يضيق على الزئبقية.
فالمثقف الأوروبي مثلا يملك ثقة بالنفس وطول نفس فقيمته الحقيقية تصدرعن قيمة الموقف الذي يتخذه فهو يختار موقفه بعد تأمل بعيد عن أية ضغوط وولاءه موجه للثقافة ولنفسه، أما المثقف العربي الزئبقي ينساق وراء انفعالاته ويرصد الموجة الراهنة سعيا لركوبها فتتناقض مواقفه فهو موظف لا صاحب رسالة وهو دائما بانتظار كيس الذهب.
ومن باب الإنصاف للمثقف العربي فالتبعية لأصحاب النفوذ كان سائدا في كل الثقافات منذ فجر الحضارة الإنسانية وحتى عصر النهضة. لكن العصور المظلمة امتدت في البلاد العربية. فالمثقف العربي لم يتمتع بما تمتع به المثقف الأوروبي من امتيازات مبكرة ولم تعرف الديمقراطية طريقها اليه. والسلطة الجديدة التي تلت السلطة العثمانية خرجت من معطف السلطة القديمة بعد أن دفعها الطموح للاستقلال ومارست نفس الاستبداد فالمثقف العربي ظل موظف من موظفي الدولة لا يمكنه العيش من قلمه وابداعه دون سند وضمان وليس هناك سند أضمن من الدولة. من هنا تنبع الزئبقية الفكرية التي ممكن ان تتراوح بين الدعاية الذكية اللماحة أو البوق الأجوف المباشر لتوجهات الدولة.
أما قيم الحرية والديمقراطية تتوارى في العقل الباطن عند المثقف لعجزه عن دفع تكاليفها. وإن قررت الحكومة العربية اتباع النهج الديمقراطي. يعثر المثقفون الزئبقيون عن طاغية في بلاد مجاورة يدينون له بالحمد والتسبيح فالديكتاتوريات المجاورة تشبع زئبقيتهم ويتحولون إلى مهرجين في بلاطها, بينما هم معارضون أشداء في بلدهم لا يعرفون الا الجهامة لثقل الرسالة الحضارية الملقاة على عاتقهم. وفي البلاد المجاورة لا يعرفون إلا الابتسام وخفة الدم.
الجوهر الأخلاقي في الثقافة جزء عضوي لا يتجزأ عن كيانها والمثقف الزئبقي يتصور أن بإمكانه تجاهل هذا الجوهر. فيخرج بنفسه من كوكبة رواد الثقافة الذين شكلوا خارطة الفكر الإنساني عبر العصور. ولا شك أن الضياع الذي تعاني منه أجيال الشباب راجع الى مكونات وجهة النظر الضائعة في الثقافة المصرية والمرض الحقيقي هنا فقدان الهدف ووجهة النظر التي يحكم بها وعلى أساسها، فيما يخص الأهمية. فالزئبقي يأخذ من الفكر والثقافة بقدر ما يساعده على الظهور بمظهر الخبير فضاعت المعالم الفارقة بين من يعلمون ومن لا يعلمون.
من عوامل ازدهار الزئبقية الفكرية أن الفكر الذي نحياه مستعار من سوانا، منقول عن أسلافنا أوعن مصادر غربية. والعيب أننا لا نكتفي منه بالإيجابيات بل نأخذه كاملا. فعلى الزئبقي الإفصاح بزئبقيته لنفسه على الأقل. وأن يترك العقل الزئبقي مكانه للعقل الموضوعي النقدي المؤهل للتفاعل والحوار. ويتسلح بالرؤية الموضوعية التاريخية دون تزوير الحقائق.
هنا يبرز الدور الاستراتيجي الحضاري المنوط بمرفق التعليم بكافة مراحله، وكذلك مرفق الإعلام بكل اجهزته لبناء العقل النقدي، وترسيخ قيم الممارسة الديمقراطية. خاصة في هذا العصر الذي تميز بالتفكك الأيديولوجي. والاحساس العميق لدى فئات واسعة من المثقفين بضياع زمن اليقين. وسادت موجات الشك العميق. وتراجع الانتماء الفكري لفئة أو تيار ما فقد أفرز المناخ الثقافي في السنوات الأخيرة أنماطاً من الزئبقية الصريحة. منها السعي الدؤوب للتكيف مع المتغيرات الدولية والإقليمية والمحلية.

الفصل الرابع: الزئبقية السياسية

قد تبدو الزئبقية في أخطر صورها في مجال السياسة، خاصة في نظم الحكم الديكتاتورية، الشمولية، والاستبدادية التي تحجب فرص تعبير الشعب عن كيانه. فيتحول هنا المجتمع إلى تربة خصبة ومرتع لكل مظاهر النفاق والانتهازية والزيف. فيتخذ معظم الناس مواقف سياسية أو فكرية لا يؤمنون بها في سبيل تحقيق أو حماية مصالح أنانية شخصية. فتتغير مواقفه بتغير الظروف حتى لا يحاسبه أحد، فلا موقف واضح أو محدد.

وللمواطن العذر فالديكتاتور ذاته كائن ديكتاتوري فقد يتبنى عقيدة معينة وتبنيه هذا ليس إلا موقفاً سياسيَاً طارئاً ومؤقتاً. فهو يدرك أنه ليس الأسد الوحيد في أحراش السياسة العالمية، وبذلك نراه بوجهين الأول وجه زئبقي مقنع متلون يواجه به العالم، ووجه متجهم صارم حاد يواجه به بلده.

فالديكتاتور محور التفكير والسلوك الذي يدور حوله كل الزئبقيين والانتهازيين والمنافقين. وكل منهم يتفنن في تسخير قدراته وطاقاته في سبيل تغذية جنون العظمة داخل الديكتاتور. فرجل الاعمال يهمه شركاته ومؤسساته للحصول على مزيد من الامتيازات. وأفراد بطانة الحاكم يستمدون سطوتهم من قربهم منه وهم على أهبة الاستعداد لتلبية رغباته دائما. ولا يتوقف المد الزئبقي على بطانة الزعيم وصحافته وإعلامه، بل يمتد ليطغى على كل أجهزة الدولة الشمولية.

فواضع المناهج التعليمية يقحم أراء الزعيم حتى لو كانت المادة فيزياء أو كيمياء أو بيولوجيا، ومنهم من يؤلف كتب للزعيم ويضعون اسمه عليها مثال ذلك ديكتاتور رومانيا الراحل شاوشيسكو الذي ألف موسوعة ضخمة شاملة لكل فروع المعرفة الإنسانية في حين أنه لم يكمل تعليمه.

والزئبقية السارية تحت وطأة الديكتاتور مستعدة لتغيير وجهتها لو فقد الديكتاتور زمام الأمور لديكتاتور آخر ليكون مركز ثقل جديد للبطانة والحاشية الزئبقية، وهم مريحون بالنسبة للديكتاتور. فهم دائما بالخدمة، لكن الزئبقية تطورت فلم تعد بتلك السذاجة ولم يعد خبثها تقليدياً. بل أصبحت تستخدم الأساليب الحديثة في التخطيط الاستراتيجي والتنظيم والدعاية والفكر. وذات مطامح سياسية واقتصادية بعيدة المدى.

فالزئبقية المباشرة قصيرة النظر تسعى لتحقيق أهدافها من أي طريق قصير مهما كان نوعه لكنها لا تلفت انتباه الديكتاتور فهو ينظر إليها من علُ، لأنه يفضل المواطن الذي تستغرقه مصالحه الشخصية ومكاسبه المادية على المواطن الذي تشغله القضايا القومية.

أما الزئبقية بعيدة النظر وطويلة النفس هي التي تلفت أنظار الديكتاتور وتشبع نوازعه لأن أسلوبها مبطن ومعمي وغير مباشر فتحاول أن تكسب سمعة وطنية وصبغة قومية. وتحرك عملاءها بأسلوب خفي إذا تقدمت لعمل يستنكره الرأي العام. فهي زئبقية متطورة لها وسائلها الحديثة اللبقة، وليست فجة بدائية مثل زئبقية الأميين.

وفي ظل الديكتاتورية يكثر الزئبقيين الذين يعيشون بوسائل غير مشروعة. من تزييف واحتكار وسمسرة، وعلاقات مع شركات اجنبية. وغالباً ما يعمل أقارب الديكتاتور وأصدقاؤه المقربون في التجارة والمقاولات والتهريب والمضاربة بالأراضي، وتوكيلات الشركات الأجنبية والعمولات المرتبطة بها. وكلما زاد نشاطهم أصبحوا كتلة مؤثرة في مجريات الأمور. وهنا تفتح أبواب السلطة أمام المنافقين والمحتالين وهم في الواقع رؤساء عصابات، تجار مخدرات، وكل الممنوعات الممكنة.

ويلتف الموظفون البيروقراطيون حول الديكتاتور فيصبح كل منهم ديكتاتور صغير في موقعه. أي إنها سلسلة لا تنتهي من الطغاة والعبيد. حلقة من القهر والجبروت المباشر تليها حلقة من التملق والزئبقية المراوغة. فتغلب الحالة العصبية من عاطفة وانفعال بنتيجة التقاليد الزئبقية.

الزئبقية سلاح ذو حدين. فأحيانا يستفحل خطرها ضمن بطانة الديكتاتور على الديكتاتور نفسه. أما الديكتاتور اليقظ فيعمل على تصفية أعوانه ومساعديه من حين لآخر كأفراد أو جماعات.

الديكتاتور والزئبقية وجهان لعملة واحدة. فالديكتاتور يعلن عن خططه وبرامجه وأهدافه بطريقة رنانة. الممكن وغير الممكن، السهل والصعب وحتى المستحيل لجذب سذج الناس، وليستخدم ذلك مادة للدعاية. وكذلك الزئبقية السائرة في ركاب الديكتاتورية لا يهمها ان تكيل الوعود للديكتاتور او للشعب وهدفها الكسب المؤقت.

فيقول المثل المصري (سألوا فرعون ايه الي فرعنك؟! قال لهم: مالقيتش الي يصدني) فداخل كل انسان، طاغية كامن داخله. في حالة الديمقراطية يمكن كبح جماحه وبالتالي يتحول الى طاقة. ويذهب بعض الفلاسفة المتشائمين الى القول بان الديمقراطية هي الاستثناء وأما القاعدة فهي الديكتاتورية.

وصور الفيلسوف الألماني بوفندورف الأسباب الجوهرية التي تؤدي الى اتباع الأساليب الزئبقية بقوله إن الحيوانات لا تتصارع على طعامها إلا إذا أصبح نادراً، لكن البشر لا يشبعون حتى في حالات الوفرة وعلى استعداد كل الطرق الملتوية للحصول على أشياء حتى زيادة على حاجتهم. فهم مصابون بالطموح.

لكن الطموح فضيلة إنسانية. والعبرة بالوسيلة التي تستخدم لتحقيقه. وبالمدى الذي يصل اليه. فاذا تجاوز حدوده وصل الى مرحلة الغرور المطلق أو جنون العظمة. والزئبقية أرض خصبة لنمو جنون العظمة. حتى ان الطاغية بنفسه يتعامل مع ذاته بزئبقية فهو يراوغ نفسه ويغالطها مغالطة لا شعورية ويغطي إخفاقاته وفشله بانتصارات موهومة لا تنتمي الى الواقع.

وليست الزئبقية واعية دائماً. فالزئبقي يتصرف أحيانا دون أن يدرك حقيقة سلوكه الزئبقي. والزئبقية مرض يظل كامناً وفي حالة سكون لفترة من الزمن. فإذا وضع في ظروف جديدة تغريه بالتسلق وتحقيق مصالح أدبية او مادية فتطفح زئبقيته الكامنة على سطح شخصيته.

ففي الثورات التي شهدتها دول العالم الثالث في النصف الثاني من القرن العشرين. ينتقل الثوار من مرحلة المعارضة والاضطهاد الى حالة النصر والحكم. فتصيبهم الزئبقية خاصة أولئك الذين يجدون بالثورة فرصة العمر لتحقيق ما فاتهم في سنوات الضنك والتقشف، وكذلك الحركات النقابية. فالعمال المعدمون القادمون من قاع المصانع والمناجم عندما يتمكنون من قواعد اللعبة النقابية، سرعان ما يتحولون الى أفراد زئبقيين انتهازيين بيروقراطيين ويندمجون في اللعبة السياسية عندما يقفزون على مقاعد القيادة. حيث النفوذ والمؤتمرات الدولية والرواتب بدون عمل, سوى الخطب والندوات والاجتماعات الدورية من استعراض للمهارات الكلامية والتلاعب بالآراء والأفكار.

الفصل الخامس: الزئبقية المهنية

ينطبق مفهوم الزئبقية المهنية على كل من الزئبقية البيروقراطية والزئبقية الحرفية، وإذا كانت المرونة فضيلة مطلوبة سواء في الأجهزة البيروقراطية وفي المؤسسات الحرفية. فالمرونة لا تعني الزئبقية أبداً. والبيروقراطية بحد ذاتها ليست عيباً، فهي الإدارة بواسطة المكاتب التي نجحت بفاعلية وكفاءة في الدول المتقدمة. في حين فشلت البيروقراطية في الدول النامية بسبب تركز السلطة بأيدٍ تسعى لمكاسب مادية ذاتية فقط.

وتنتشر الزئبقية البيروقراطية ضمن الجهاز الإداري نفسه بين الرئيس والمرؤوسين. أو بين الجهاز والمتعاملين معه. فقواعد اللعبة الزئبقية مشاع للجميع. فلوائح الأنظمة تنطوي على غموض يدفع لتأويلها بما يتوافق مع المصالح. ولم يكن لأداء واجبات الوظيفة وزن كبير في نفوس الموظفين. ما جعلهم بحق جهازاً استهلاكياً أكثر منه انتاجيَاً، بخلاف الموظف في الدول المتقدمة الذي يفتخر بكونه يخدم مجتمعه.

وتأتي التعقيدات البيروقراطية نتيجة الزئبقية التي تسبب كثرة الملفات والمستندات التي يلجأ كبار الموظفين وصغارهم إليها لحماية وتحصين إدارتهم ضد الاتهام بالخطأ أو الإهمال والتسيب. فالخوف المرضي من المسؤولية إذا هو سبب أساسي من أسباب الزئبقية البيروقراطية.

أما عن الزئبقية الشعبية في مواجهة الأجهزة الإدارية فلها أيضاً أساليبها. مثل تعامل الجمهور مع مصلحة الضرائب، في حين يعتبر الوعي الضريبي مقياساً لتقدم الشعوب أو تخلفها. ففي الدول المتخلفة يصبح التهرب من دفع الضرائب نوعا من الشطارة والفهلوية. ومن هنا تأتي خطورة الزئبقية الشعبية على سياسة التنمية الاقتصادية وتدعيم البنية الأساسية وترسيخ الأمن القومي. فالتعاون الفعال بين الشعب والحكومة ليس مجرد شعارات. بل هو خطوات إجرائية فعالة.

فانتشار هذه الزئبقية راجع الى غياب الأسلوب العلمي في الإدارة، الذي يحدد القنوات ويقنن المسارات، كذلك هناك قصور في الأيديولوجية الثقافية والتربوية. ناتج عن مناهج التعليم في المدارس والمعاهد والجامعات التي لا تعلم خريجيها التفكير العقلاني الموضوعي، أو الثقة بالنفس. او احترام الذات. او القدرة على مواجهة المواقف. فشهاداتهم تؤهلهم لوظائف محددة. لكنها لا تؤهلهم للابتكار والمبادرة التي تؤهلهم من الارتقاء بأنفسهم ماديا وأدبياً.

أما عن الزئبقية الحرفية فتتميز بالبساطة والمباشرة وأحيانا السذاجة. مثلا بإعطاء موعد للزبون لإنهاء مهمته. وهو يعلم جيداً أنه لن يوفى به. إيمانا بالمثل الشائع (كلمة حاضر تريح).

الفصل السادس: الزئبقية النسائية

إن القهر الاجتماعي الذي عانت منه المرأة على يدي الرجل قادها إلى التسلح بكل أنواع التلون الزئبقي تحافظ على كيانها بقدر الإمكان. وكأن الرجل أراد أن ينفس عن قهره السياسي والاقتصادي على أيدي الحكام الأجانب بقهره للمرأة التي لا حول لها ولا قوة. فكان بيتها سجن مؤبد لها. والمفارقة الغريبة أنها اعتادت السجن الذي وجدت فيه حياتها التي لا حياة لها غيرها. وكان رعبها الأزلي أن تجد نفسها ملقاة آخر الأمر خارج أسوار السجن إذا لم يرضَ عنها سجانها.

وفي مجتمعنا النامي لا تجد المرأة وسيلة لتحقق بها وجودها وتثبيت ذاتها إلا الحمل والإنجاب فذلك حدث تاريخي في حياتها. فهي تدرك أن خير وسيلة زئبقية للاحتفاظ بزوجها هو أن تنجب له أكبر عدد ممكن من الأبناء حتى يعجزه حمله الثقيل عن النظر إلى امرأة أخرى.

فعدد السكان في الأماكن الريفية أو الشعبية المحرومة يتزايد بسرعة كبيرة وما لهذا من تبعات الفقر والجهل والمرض. فلقد ثبت أن المرأة هي التي تلعب الدور الأساسي في تغيير نمط الحياة، وفي تشكيل البنية الأساسية للإنسان المصري، وفي حل مشكلة الانفجار السكاني أي في التنمية البشرية بصفة عامة. ولا يمكن النهوض بهذه المهام إلا من خلال بناء الشخصية الواعية الناضجة القوية المتسقة للمرأة القادرة على التفكير العلمي، والمواجهة المباشرة، والمصارحة العقلانية بعيداً عن أدوار الظل التي مارستها بكثير من الذل والتسول والتملق والمداهنة والمراوغة.

وزئبقية المرأة إذاً ليست بقضية نظام أو دستور. بل هي قضية مرتبطة بوعي المرأة واحترامها لذاتها وثقتها بنفسها.

تعقيب:

فالزئبقية وباء ينتشر بالعدوى، ويصيب بشكل خاص أولئك الذين طحنتهم الحياة وأذلتهم. أو الذين يفتقدون المناعة الأخلاقية لمقاومته، فهي تعني الانتماء للذات فقط. ولها سلبيات تغلب على إيجابياتها. ومن شأن تلك السليبات عرقلة عجلة التطور.